علم النفس و التربية و الاخلاق

عند اخوان الصفا

فلسفة اللذة و الالم - كيف تحس وكيف تجمع التذكارات فى الدماغ غاية التربية - العامل صحيفة بيضاء - واجبات المتعلم والمعلم - فعل البيئة - الوظيفه حسب الآداد ... منشأ الاخلاق - التساهل - اسباب التعصب - فوائد التعصب - الدين العملى - اختبار الاصدقاء ....

فى رأى الأخوان ان الحيوانات فى اكثر الاحيان تحس باللذة والألم ، لأن ابدانها مركبة من الأمهات الأربعة ذات الطباع المتضادة : وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. وهى دائمة التغير والاستحالة والزيادة والنقصان . فهى تخرج المزاج تارة من الاعتدال الى الزيادة فى أحد الأخلاط والطباع ، او الى النقصان فى واحد منها . واللذة هى رجوع المزاج الى الاعتدال بعد ان يكون خارجا عنه . فمن أجل هذا لايحس الحيوان باللذة الا بعد ان يتقدمها الم . وكل محسوس يخرج المزاج عن الاعتدال فأن الحاسة تكرهه . وكل محسوس يرد المزاج الى الاعتدال فأن الحاسة تحبه ،

تأمل هذه الأفكار فأن لها — على سذاجتها — حظاً كبيراً من الصدق والاصابة .

اما كيف تصل المحسوسات الى الدماغ فهو انه ينتشر فى مقدم الدماغ عصبات لطيفة لينة ، وتتصل بأصول الحواس وتتفرق هنالك وتنسج فى اجزاء جرم الدماغ كنسيج العنكبوت . فاذا باشرت كيفية المحسوسات من اجزاء الحواس ، وتغير مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كيفياتها ، وصل ذلك التغير فى تلك الاعصاب التى فى مقدم الدماغ فتجمع كلها عند المخيلة كما تجمع رسائل اصحاب الاخبار عند صاحب الجريطة الذى يوصل تلك الرسائل كلها الى حضرة الملك . ثم ان الملك يقرأها ويفهم معناها ثم يؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها — الى وقت التذكار . .

هذا رأى الأخوان فى تفسير الاحساس واختزان التذكارات فى الدماغ . وللقارىء ان يتناول كتابا فى علم النفس الحديث ليرى كيف يفسرون هذه الظواهر النفسية كالأدراك والاحساس والتذكر ، ثم ليقابل ذلك بما يبثه اخوان الصفا من رأى صائب فى هذه القطعة الطريفة الساذجة . بيد انى لا احب ان يستقر فى روع القارىء ان رسائل الأخوان كلها أو جلها على هذا النحو ، وفى هذا الحد من الابتكار والاصابة. فان فيها من السخف والضحولة الشيء الكثير . ولهذا كان حتما على المطالع لهذه الرسائل ان يوطن النفس على مافيها من تجاور بين الفكرة الملهمة العميقة والفكرة الفجة المضحكة اذا شاء ان يمضى فى هذه المطالعة ويواصل المجهود الى النهاية .

* * *

اما التربية فغايتها ومثلها الأعلى ، فى رأى الأخوان ، هما الغاية والمثل الأعلى اللذان كانا لها فى القرون الوسطى حينما كانت الأديرة والكنائس وما اليها هى معاهد التثقيف الوحيدة فى اوربا . ولعلك تعلم ان نظرية القرون الوسطى هذه هى ان هذه الحياة دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، فالسعيد السعيد هو الذى كانت حياته عدة وسلماً يرقى عليها مبرأ من كل وزر الى دار البقاء . واليك مايقوله الاخوان فى هذا الشأن ، وان لم يكن صريحا فى الدلالة على قصدهم كل الصراحة ، قالوا : —

« واما رتبة الانسانية التى تلى رتبة الملائكة ، فهى ان يجتهد الانسان ويترك كل عمل أو خلق مذموم ويكتسب اضدادها من الاخلاق الجميلة حتى يكون انسانا خيراً فاضلا . فاذا فارقت روحه جسده عند الموت صارت ملكا بالفعل ، وعرج بها الى ملكوت السماء ، ويرى اخوان الصفا — كما رأى غيرهم — ان الطفل صحيفة بيضاء قابلة لكل مايطبع عليها من تأثيرات . ومتى لوثت هذه الصحيفة مرة أو سودت كان من الصعب جلاؤها واماطة السواد عنها لانه اذا كتب فيها شيء حقاً كان ام باطلا فقد شغل المكان ومنع ان يكتب فيه شيء آخر ويصعب حكه ونحوه ،

لهذا فالاخوان لايطمعون فى اصلاح المشايخ الهرمين ، الذين اعتقدوا من الصبى آراء فاسدة وعادات رديئة واخلاقا وحشية . فأنهم يتعبونك ولا يتصلحون ، وان صلحوا قليلا فلا يتعلمون . ولكن عليك بالشباب السالمى الصدور الراغبين فى الآداب المبتدئين بالنظر فى العلوم

وهم يحددون واجبات المتعلم والمعلم تحديداً صريحاً اذ يقولون: « ان مايحتاج اليه المتعلم من الاخلاق الجميلة والخصال الحميدة هو فصاحة اللسان والتواضع للعلم والتعظيم له ومعرفة حقه . اما المعلم فواجب عليه الشفقة على تلاميذه وعدم الضجر من ابطاء فهمهم ، وقلة الطمع فى اخذ العوض و وقلة المنة عليهم ،

ويدرك اخوان الصفا ما لفعل الوسط و القدوة من أثر فى تربية الطفل فيقولون : —

« واعلم أن كثيراً من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان يتخلقون باخلاقهم ويصيرون مثلهم . وهكذا أيضا كثير من

الصبيان اذا نشأوا مع الصبيان والخانيث فانهم يكتسبون أخلاقهم ؛ وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الاخلاق التى ينطبع عليها الصبيان منذ الصغر ،

واخوان الصفا يوصون بأن يدأب المعلم (ولفظهم صاحب الشريعة) فى دراسة تلامذه والتفطن الى احوالهم ، والانتباه الى اخلاقهم وسجاياهم واحداً واحداً ، حتى يعرف كل واحد منهم ، ما اسمه وما نسبه وما صناعته وما هو سيله فى أمر معاشه وما هو الغالب عليه من الطبع الجيد والردىء وحتى يثق بهم علما وبدين منازلهم ، ويستعين بكل واحد منهم فى العمل المشاكل له ، ويستخدمه فى الامر اللائق به ،

تقرأ هذا فيخيل اليك أن اخوان الصفا مطلعون على فلسفة التربية الحديثة التى تصر على وجوب دراسة الطلاب دراسة دقيقة منظمة تفضى الى فهم كفايات كل طالب ليعطى من الدروس والاعمال ما يتلاءم وأعظم هذه الكفايات بروزاً وأكثرها خيراً مأمولا .

* * *

والاخلاق عند اخوان الصفا خاضعة لفعل الوراثة ولفعل الوسط الطبيعى والوسط الاجتماعى ولشىء آخر هو فعل الكواكب فهم يقولون : ـ

« اعلم يا أخى ان اخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربع جهات : أحدها من جهة اخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها ، والثانى من جهة ترب بلدانهم واختلاف أهويتها ، والثالث من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم وعادات معلميهم وأساتيذهم ومن يربيهم ويؤدبهم ، والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليدهم ، وقد تكلم اخوان الصفا فى الاخلاق كثيراً ولا نستطيع أن نعطيك رأيهم الا فى النذر القليل .

يعجبك حقا من اخوان الصفا اقتناعهم اقتناعا عميقا بفائدة التساهل . وفلسفتهم الانتخابية (١) قد بنوها على هـــذا المبدأ . فالاديان والشرائع كلها عندهم سواء . وليس لدين فضل على دين الا بمقدار ما فيه من صدق وأصابة . ولذا فهم ينصحونك بان تخضع دائما للحق وتحترمه أنى كان مصدره . واليك ما يوصون به : ـ

« لا تتمسك بما أنت عليه من دين ومذهب واطلب خيراً منه ، فان وجدت فلا يسعك الوقوف على الأدون ، ولكن واجب عليك الأخذ بالأخير .. لا تشغل بذكر عيوب مذاهب الناس ، ولكن انظر هل لك مذهب بلا عيب ؟

وهم يعتقدون أن التصلب فى الرأى والتعصب للعقيدة أسبابا جمة منها : « شدة تعصب المرء فيما يعتقده بقلبه من غير بصيرة ، وأخرى إعجابه بنفسه فى اعتقاده ، وأخرى اعتقاده أصولا خفى فيها خطأه بين ظاهر الشناعة فى فروعها . ولهذا فهو يلزم هذه الشناعات فى الفروع مخافة أن تنتقض عليه الأصول ، فيطلب لها وجوه المراوغة عن الزام الحجة عليه : تارة بالشغب ، وتارة بموه وتارة يروغ فى الجواب والاقرار بالحق ويأنف أن يقول : (لا أدرى)

على أن اخوان الصفا لا يمقتون التصلب فى الرأى كل المقت لأنهم يرون فيه فوائد تغطى على بعض مضاره . يرون أن اختلاف العلماء فى آرائهم وتعصبهم لها يدعوان الى شحذ الافكار ، لان كل فريق يحاول أن ينصر مذهبه على مذهب غيره مما يدعو الى الغوص على المعانى الدقيقة ، والنظر الى الاسرار الخفية ، فيكون ذلك سبباً فى يقظة النفوس .

كذلك هم يرون أن اختلاف العلماء يدعو الى نشر معائبهم ، إذ يكون هم كل واحد تبيان مساوىء الآخر وإظهار رذائله ، فيكون ذلك حاثاً للجميع على ترك الرذائل .

ويرون أيضاً أن هـذا الاختلاف فى الآراء والمذاهب يوجد مضطرباً أوسع فى أمور الدين وممارسة شعائره .

وقد قادهم تساهلهم الى هذا الدين العملى : وهو اعتبارهم : أن العبادة ليست كلها صلاة وصوماً ، بل عمارة الدين والدنيا معاً ، لان الله يريد أن يكونا عامرين ،

وللاخوان رأى جميل فى اختيار الاصدقاء والوفاء للصداقة الصادقة فيقولون :

« ينبغى لك اذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخاً أن تنتقده كما تنتقد الدراهم . واعلم بأن اخوان الصدق هم نصرة على دفع الاعداء ، وســـلم للصعود الى المعالى ، فان غبت حفظوك ، وإن تضعضعت عضدوك . والواحد منهم كالشجرة المباركة تدلت أغصانها بثمرها اليك ، وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها ، وسترتك بجميل فيها . فاذا أسعدك الله يا أخى بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك وق عرضه بعرضك ، وافرش له جناحك ، وأودعه سرك ، وإن هفا هفوة فاغفرها له ، وإن زل زلة فصغرها فى عينيه » .

هذا بعض ما فى رسائل الاخوان من طرافة فى التفكير ، وهدى فى البحث ، وجدة فى التعليل والتفسير . وعسى أن يتاح لهذه الرسائل من يكشف كشفاً أعم وأشمل عما استتر فيها من لؤلؤ وغاب من در .

شرق الأردن — أديب عباسى

(١) لعلنا نرد الى اخوان الصفا مرة أخرى فنكتب فصلا فى فلسفتهم الكونية